المقتطف

الجزء الرابع من المجلد التاسع والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٤ — الموافق ١٥ محرم سنة ١٣٢٢

فلسفة سبنسر

قضت علينا وفاة سبنسر بما كنا نتحاماهُ ونخشى دخولـــ حماهُ وهو بسط الكلام على فلسفتهِ لما فيها المصطلحات العلمية والفلسفية التي لا مثيل لها في العربية ولا يسهل نحت كلمات تفي بمعناها وتكون مما تألفهُ الاسماع . ولانَّ المباحث الفلسفية يصعب ادراكها على من لم يمارسها مما حاول الكاتب البسط والاسهاب

ومدلول فلسفة سبنسر بسيط جدًّا وهو ان كل هذا العالم الذي تراهُ عيوننا من سديم السماء الى الانسان سيد المخلوقات وكل ملابساتهِ من الحركات الطبيعية التي تحركها الكواكب في افلاكها الى حركات دقائق الدماغ التي تتولد منها الافكار — كل ذلك متولد من المادة والقوة . واذا وُجدت الآن دقائق المادة التي تكوّن هذا العالم منها ودقائق القوة التي فيهِ في مكان آخر ومضى عليها مقدار الزمن الذي مضى على العالم من حين وجودهِ الى الآن تكوّن منها عالم مثلهُ تمامًا . كأنهُ يحسب ان كل ما حدث لا بدَّ من حدوثهِ مع فرض المادة والقوة او كأنهُ سمع ابا العلاء المعري ينشد قولهُ

بربّك ايها الفلك المدارُ اقصدٌ ذا المسير ام اضطرارُ

فقال بل هو اضطرارٌ جريًا على ناموس في طبيعة المادة والقوة المتصلة بها . اما الوصول الى هذه النتيجة فليس بالامر السهل بل فيهِ من دقيق المباحث ما يتعذر تلخيصهُ في مقالة او مقالات ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ

من اللعب التي يتسلّى بها الاولاد قطعٌ من الخشب مختلفة الاشكال على كلٍّ منها صورة جزئية فعلى القطعة الواحدة مثلاً صورة رأس وعلى الثانية صورة يد وعلى الثالثة صورة

رجل او غصن من شجرة او عجلة من مركبة او حائط من بيت او قطعة من سفينة او جانب من جبل . ويُعلَم باقل نظر ان هذه الصور الجزئية اجزاء من صورة كلية فتجلس تركيبها بعضها مع بعض وانت تغيّر اوضاعها الى ان تنظّم منها الصورة الاصلية الكاملة

وهذا شأن الموجودات التي نراها في هذا الكون الواسع فقد بيّن الفيلسوف سبنسر انها كلها اجزاء من صورة واحدة كلية او من كائن واحد كلي والنواميس التي نحسبها خاصة بكل جزء منها او بفريق من اجزائها انما هي تنوّعات او فروع من ناموس عام شامل لها كلها . هذا هو مغزى فلسفته وقد وصل اليه بعد البحث والاستقراء الطويل واقام الادلة على صحته . ولم يقصد بهذه الفلسفة ادراك حقيقة الموجودات ولا ادراك مبدإها ومعادها اي ما كانت عليه قبل ان صارت في الصور التي نراها فيها وما تصير اليه اخيرًا بل ادراك الاحوال التي هي فيها

وقد قسم الموجودات كلها الى قسمين ما يمكن ان يُدرَك بالعقل وما لا يمكن ان يُدرَك بالعقل . وردّ كل المسائل المتعلقة بواجب الوجود وعلة العلل او العلة الاولى والغاية الاخيرة الى الدين او الى ما هو وراء الطبيعة او الى ما لا يُدرَك بالعقل البشري لان العقل مقيَّد في بحثه بقيود لا يستطيع حلها فلا يستطيع الوصول الى كل الموجودات . ولذلك فما يستطيع العقل ادراكه محصور في العلل الثانوية والغايات الثانوية اي في الاسباب التي نراها مباشرة للمسببات وفي النتائج التي نراها تنتج عنها . وقال ان غرض الفلسفة معرفة العلاقة بين النواميس الطبيعية وبين الظواهر المختلفة التي يظهر الكون بها وان الاختلاف بين العلم والفلسفة انما هو في درجة التعميم والتوحيد فكما ان العلم الواحد يضمّ قواعد جزئياته ويؤلف منها علمًا واحدًا كذلك الفلسفة تضم قواعد العلوم كلها وتوحّدها اي تردّها الى صورة واحدة او الى اصل واحد شامل لها كلها . فهي الغاية القصوى التي يصل اليها بحث الانسان . يبتدئ هذا البحث بمشاهدة الحوادث او الظواهر الطبيعية وجمعها وضمّها تحت قواعد تشملها ويتدرّج في استنتاج الكليات من الجزئيات الى ان يصل الى الكليات الكبرى والقضايا العامة . فالمعارف الاولى معارف جزئية فاذا جُمعت وبُوّبت صارت علومًا . فالعلوم معارف مجموعة ومبوّبة او موحّدة بعض التوحيد فاذا جُمعت هذه العلوم وانضمّت تحت القواعد التي تشملها وتشترك فيها كلها فهي الفلسفة . ولتوضيح ذلك بمثل

رأى الناس من قديم الزمان ان النبات النابت في ارض محروثة يكون اخصب من النابت في جواره في ارض غير محروثة . ووجدوا بتكرار المشاهدات ان هذا الامر عام فبنوا عليه حكمًا وقالوا ان حرث الارض يزيد نمو المزروعات . ولنفرض ان هذه هي الكلية الاولى او الحكم الاول

ورأوا ايضاً ان النبات النابت قرب مزارب البقر والغنم او في مكان فيهِ شيءٌ من زبلها يكون انمى واخصب من النبات الذي من نوعهِ وهو نابت بعيداً عن الزبل والسماد . ووجدوا بتكرار المشاهدات والتجارب ان هذا الامر عام فحكموا ان الزبل او السماد يزيد خصب الارض ونمو المزروعات . ولنفرض ان هذا هو الحكم الثاني او الكلية الثانية . ثم بحثوا وتقبوا فوجدوا ان الخصب يزيد في الحالين بتسهيل الاغتذاء على النبات فوحّدوا الحكمين تحت حكم واحد او قضية واحدة كلية وهي ان تسهيل تناول الغذاء يزيد نمو النبات . ومن جمع مثل هذه الكليات او الاحكام تألف علم الزراعة او علم الفلاحة

ووجدوا ايضاً ان الفحم او الكربون يتحد باكسجين الهواء وتتولد من اتحادهما حرارة وتتكوّن منهما جسم آخر يتحد ببعض المواد ويكوّن منها املاحاً . وان الكبريت يتحد باكسجين الهواء وتتولد من اتحادهما حرارة وتتكوّن منهما جسم آخر يتحد ببعض المواد ويكوّن منها املاحاً . والفصفور يتحد باكسجين الهواء وتتولّد من اتحادهما حرارة وتتكوّن منهما جسم آخر يتحد ببعض المواد ويكوّن منها املاحاً . فحكموا ان اتحاد المواد بالاكسجين يولّد حرارة وتتكوّن من اتحادها به اجسام اخرى تتحد ببعض المواد وتكوّن املاحاً مثل كربونات الصودا وكبريتات الحديد وفصفات الجير . ورأوا ان القلويات والحوامض والاملاح تجري على نسب محدودة في مقدار ما فيها من العناصر المختلفة فقد يكون فيها وزن واحد من الاكسجين او وزنان او ثلاثة او اربعة وقس على ذلك غيرهُ من العناصر فقالوا ان المركّبات الكياوية اجسام منتظمة البناء فيها قوى محدودة من الجذب والدفع تتألف بموجبها . ومن هذين الحكمين وامثالها تألف علم الكيمياء الواسع النطاق

ووجدوا ان الحرارة تمدد الاجسام والبرد يقلصها وان النور يسير في خطوط مستقيمة وينعكس عن السطوح كما تنعكس الاجسام المرنة واذا نفذ الاجسام الشفافة على خط غير عمودي مال الى الخط العمودي او مال عنهُ حسب كثافة الجسم الذي كان فيهِ والذي نفذ اليهِ وهلمَّ جرًّا . وان الحرارة تجري مجرى النور في سيرها وانعكاسها وانكسارها وتجمّعها وتفرقها فحكموا انها هي والنور من قبيل واحد وانهما درجات من الحركة في دقائق المادة او في دقائق الاثير كما ان الصوت حركة او تموّج في دقائق الهواء او الاجسام المصوتة . فجمعوا هذه المعارف وما ماثلها وألّفوا منها علم الطبيعيات او علم الفلسفة الطبيعية . وقس على ذلك سائر العلوم والفنون . فقام سبنسر ونظر في العلوم كلها فرآها مشتركة ويمكن ارجاع نواميسها الى ناموس واحد عام يشملها كلها رأى مثلاً ان ظواهر الفلسفة الطبيعية يمكن ردها كلها الى فعل القوة

بالمادة وكذلك ظواهر الكيمياء والفسيولوجيا الحيوانية والنباتية . فأكثر من البحث والتحري الى ان ردّ العلوم كلها والظواهر الطبيعية كلها الى اصول قليلة او الى ناموس واحد وهذه هي فلسفتهُ التي وحّدت العلوم وجعلتها علمًا واحدًا او هي جزء من فلسفتهِ لانهُ لم يكتفِ برد الاشياء الى اصولها والافعال الى مبادئها بالتحليل بل بيّن كيف تتركب الاشياء والافعال من اصولها ومبادئها بالتركيب وهذه هي الفلسفة التركيبية التي كان جلّ بحثهِ فيها

ويستحيل علينا ان نبين في مقالة واحدة او بضع مقالات كيفية التوصّل الى توحيد العلوم كلها فنقتصر الآن على ذكر النتائج التي وصل اليها او اعتمد عليها

فالنتيجة الاولى التي اعتمد عليها هي ان القوة ثابتة اي لا تتلاشى ولا تزيدُ ولا تنقص ولو تحوّلت من صورة الى اخرى . ويقال ان ذلك من البديهيات او الاوليات التي لا تحتاج الى دليل وعند سبنسر ان القوة هي غاية ما يمكن تصوّرهُ وثبوتها قاعدة فلسفتهِ وبهِ تعلل كل الافعال الطبيعية تحت شكل المادة والحركة . واذا زالت القوة زال معها الشعور . وعندهُ ان ثبوت القوة يفوق اختبار الناس لان الاختبار مبني على ثبوت القوة فهو اساس الاختبار واساس كل العلوم لانها كلها اختبارات مبوّبة ومنظّمة فاذا حللنا معارف الناس نصل اخيرًا الى ثبوت القوة واذا اردنا ان نبنيها ثانية وجب ان نبتدئ من ثبوت القوة . واول فرع يتفرّع من ثبوت القوة ان النسبة بين انواع القوى المختلفة ثابتة ايضًا اي ان نواميس الطبيعة ثابتة لا تتغير وان القوى تتغير من صورة الى اخرى ولكن مجموعها يبقى واحدًا في كل الافعال سواء كانت طبيعية او كيماوية او عقلية او اجتماعية وان هذه الافعال كلها جارية على ناموس واحد يشملها كما ان كل فريق منها جارٍ على ناموس خاص بهِ . قال سبنسر في هذا المعنى ما ملخصهُ

" لنفرض ان الكيماوي والجيولوجي والبيولوجي فسّر كلٌّ منهما ما يحدث في احتراق الشمعة وزلزلة الارض ونمو النبات بحسب قواعد علمهِ ووصل في التفسير الى غاية ما يصل اليهِ العلم فعلل اولهما احتراق الشمعة بتولد الحرارة والنور وانحلال دقائق الشمعة بانطلاق الحركة الكامنة بين دقائق المادة . وعلل الثاني زلزال الارض باشعاع الحرارة الداخلية منها وتقلصها وهبوط بعض اجزائها . وعلل الثالث نمو النبات بتأثير النور في حركة دقائقهِ . أفلا يطلب العقل تعليلاً يجمع هذه التعليلات المختلفة ويردها الى سبب واحد كما ان كل تعليل منها يجمع افعالاً مختلفة ويردها كلها الى فعل واحد . وهل تجري الفواعل الطبيعية المختلفة على سنّة معلومة ولكن مجموعها لا يجري على سنّة . ان هذه التغيرات المختلفة صناعية كانت او طبيعية آلية او غير آلية نفصل بينها لتسهيل النظر فيها ولكنها في الحقيقة غير منفصلة لانها كلها

تغيرات حادثة في عالم واحد وهي اجزاء من عمل واحد واسع النطاق . فما هو الشيء الذي يجمعها كلها على اختلاف اشكالها الظاهرة وتباينها . المادة ثابتة لا تتلاشى والحركة دائمة لا تتلاشى والقوة ثابتة لا تتلاشى ولكن القوة تتغير على الدوام والحركة تسير في اقل الجهات مقاومة فما هو الناموس الذي ترجع اليهِ نواميس المادة والقوة هذا هو مطلب الفلسفة (١)

من هنا جعل سبنسر ينظر في النواميس العامة التي تجري عليها المادة والقوة في توزيعهما واعادة توزيعهما اجمالاً وتفصيلاً لكي يردّ هذه الافعال كلها الى نظام معقول فقال ان لكل انواع الموجودات ولكل التراكيب التي توجد فيها تاريخاً وهذا التاريخ يشمل كل الزمن بين خروجها مما لا يُدرك بالعقل وبين عودها اخيراً الى ما لا يدرك بالعقل . وهذه الافعال اي توزع المادة والقوة الذي يجري من حين صدورها مما لا يُدرَك الى حين عودها الى ما لا يدرك ويشمل كل الدرجات التي تمرّان عليها وهما في الاحوال التي يدركها العقل — هذه الافعال تشمل عملين متضادين الاول يظهر بجمع المادة واخراج القوة منها كما يحدث اذا تكاثف البخار فصار ماء فان الحرارة تظهر منهُ حينئذٍ . والثاني بامتصاص القوة وتفريق المادة كما يحدث بامتصاص الماء للحرارة وصيرورتهِ بخاراً متفرّق الدقائق فالاول يحدث التحاماً وتحدّداً والثاني يحدث انتشاراً وتخلخلاً وهذان الفعلان المتضادان هما النشوء والانحلال والعالم كلهُ في تغير مستمر وكل ما يقع فيهِ من التغير كبيراً كان او صغيراً آليًّا او غير آليّ طبيعيًّا كان او حيويًّا او عقليًّا او اجتماعيًّا كل ذلك يردُّ الى هذين الفعلين (٢)

ولم يقتصر سبنسر على الاستقراء في التوصل الى هذه النتائج لاسيما وانَّ الاستقراء يقصر عنها لان انَّهُ ناقص بالنسبة اليها ولكنهُ اعتمد على القياس كما سيجيء فصارت نتائجهُ منطقية مقرّرة عند الذين يسلمون بمقدماتهِ ويعدونها من البديهيّات او العقائد الاولية . وسيأتي الكلام في الجزء التالي على الكيفية التي اتّبعها في بحثهِ الى ان وصل الى اصول فلسفتهِ

وقد يتبادر الى الذهن من مدلول فلسفة سبنسر" اذا وجدت المادة والقوّة ومرَّ عليها الزمن الكافي تكوّن منهما كل مايرى في هذا العالم" انهُ مادي وفلسفتهُ مادية وهذا خطأ لانهُ لم يقل بتكوّن الموجودات من المادة فقط ولا انها تكوّنت من نفسها بل انهُ لم يحاول البحث عن العلة الاولى ولا عما وراء الطبيعة وذلك بمثابة التسليم بوجودها مع الحكم بعجز العقل عن ادراكهما

(١) كتاب المبادئ الاولى بند ٩١ (٢) هذه الفقرة الاخيرة ملخصة من مقالة للاستاذ هدصن الاميركي في فلسفة سبنسر